الفصل الثاني

محمد محمود الزبيري وتجديد لغة الشعر ووظيفته

كانت اليمن في بداية تبلور شخصية مُحَمَّد محمود الزبيري في موعد مع قَدَر جديد، ووعود جديدة تختلف عما شهدته طوال تاريخها الماضي. لم يكن هناك في بيئة الزبيري وتعليمه وتاريخ أسرته ما يؤشر ولو مجرد إشارة إلى أنه سيخرج عن سرب الشباب العاديين من أهل صنعاء، فيتردد على حلقات الدراسة في الجوامع ويلتحق إن أمكن بالتعليم المتدني المتاح، حتى يحصل على وظيفة صغيرة أو متوسطة، مثله مثل أبيه وأفراد أسرته، للعمل سواء في أية محكمة أو إدارة بدائية في صنعاء أم في الريف للفوز بالمرتب الزهيد وتكملته بما يمد إليه يده في شبكة الاختلاس المعترف بها رسميا. فما الذي جعل الزبيري يأنف هذه الحياة منذ البداية حتى وقد التحق بصديق له، هو عبدالله بن علي الوزير، ابن نائب الإمام في تعز وإب، بيضة الذهب والبقرة الحلوب التي كان كل موظف يتمنى أن ينعم بما أمكن من حليبها[60]؟

كانت صنعاء قد أصبحت عاصمة الدولة الإمامية وبدأت تمد أذرعها إلى أغلب بلاد اليمن. وكان شباب صنعاء من أمثال الزبيري يتطلعون للاستفادة من هذا الانتشار الصنعاني في شكل وظائف وفوائد مالية ونفوذ وصعود اجتماعي. وكان لدى الزبيري أكثر من غيره من الشباب في عمره من المؤهلات ما يجعله يحظى بهذه الامتيازات، أب موظف من أسرة صنعانية معروفة لها علاقاتها بالحاكمين، وتعليم تقليدي سائد يسمح له بممارسة وظيفة يتولاها من هم أقل منه معرفة وقدرات ومواهب، وتعرُّف على بعض الأسر المقربة من الحكم، وفوق هذا كان لديه موهبة كبيرة مميزة جعلته يمتلك مزامير الشعر وسحره وبيانه.

ومع أنه كان قد بدأ الحصول على بعض المهمات الوظيفية وهو ما يزال شابا حدثا جعلته يخرج إلى بيوت مواطنين فقراء كان أمثاله من موظفي الطغيان قد دخلوها واحتلبوا فقرها لينعموا بما يساعدهم على العيش بشكل معقول، اشمأز من هذه المهمة وسارع بالتحرر

[60] كانت منطقة إب الخصبة تتبع تعز في تلك الفترة.

منها ليعود إلى مدينة تعز حائرا نافرا من الوظيفة ومن العمل مع السلطات الإمامية. ولكن ما السبيل إلى شق طريقه الصعب في هذا الوسط المتهالك على ما في أيدي المواطنين الفقراء دون رحمة؟

لا يوجد ما يميز الزبيري عن أمثاله من الباحثين عن وظيفة حكومية سوى حساسية خاصة امتلكها في التعامل مع الشعر وموهبة كبيرة تحرك مشاعره وأحاسيسه، وأفق سماه صوفيا حلق به خارج اهتمامات البشر العاديين. نعم، كان الآخرون ينظمون الشعر ويمدحون به الحاكمين والمقربين منهم، ويحاولون التعاطي مع الهجاء والرثاء. فما الذي جعل الزبيري منذ وقت مبكر في حياته يربأ بنفسه عن هذا الفهم التقليدي للشعر ويرى أن هذا ليس الشعر الذي يريد أن يبدعه وأن يكتبه ويربط حياته به؟ وهكذا لازم الشعر حياته منذ البداية وأصبح طريق نجاته من السقوط فيما سقط فيه آخرون، الارتزاق بالشعر واتخاذه وسيلة للتكسُّب. كان يرى نفسه بشعره أكبر ممن قد يمدحهم أو يهجوهم. وكاد أن ينغلق على نفسه لولا أن الشعر استدرجه وملأ وجدانه وسبح به في دنيا الأحلام حتى اقتحم به دنيا العصر الحديث، وأخرجه من العزلة والتقوقع، ودفع به في غمار الحياة المتلاطمة والمليئة بالصراعات والمتناقضات.

يقول "تفاعلت نفسي مع الشعر، وتفاعل معها، ونما خلال نموها، فكانت طفولتي طفولته، وشبابي شبابه، ونضجي نضجه، وكان يسير جنبا إلى جنب حيث أسير، فهو ساذج في سن المراهقة، وطائش عندما أطيش، وحزين عندما أحزن، وحالم بالسعادة وقت ما أحلم، إذا لعبتُ لعب مثلي، وإذا جديتُ قلَّد جِدي، وعندما كانت يدي تلعب بقطع الشطرنج للتدريب على فنون الكر والفر والهجوم والدفاع كان هو يعبث برؤوس الملوك يقذفها جوا، ويطرحها أرضا، ويزغرد بها فرحا، ويئن منها جزعا"[61].

ويرى أن الشعر عمل عادي تلقائي من أعمال القلب واللسان، ونتاج طبيعي من نتاج الحياة وصدى من أصدائها ومظهر من مظاهرها.

وقد قادته الصدفة المحضة لأن يذهب حين كان في تعز مع علي الوزير، نائب الإمام في تعز والقاسم بن الإمام يحيى، الذي كان وصوله تمهيدا لتولي الأمير أحمد بن الإمام يحيى

[61] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 7.

إمارة اللواء محل علي الوزير، فما كان أبناء الإمام قادرين على أن يسمحوا للوزير بأن يغتني وتكثر ممتلكاته ويتقوى بوجوده على رأس لواء تعز ومعها إب. وحين وصل الزبيري إلى مدرسة ذُبحان، وكان سنه نحو خمسة وعشرين سنة، لفت انتباهه أستاذٌ فتى شاب متحدث لبق، كان قد نسخ بعض الكتب لوالده الموظف في زبيد، هو أحمد مُحَمَّد نعمان. ولم تكن ظروف وجود ابن الإمام وأمير اللواء تسمح باللقاء بين الزبيري ونعمان وتبادل الآراء. لكن الزبيري حين عُزِل علي الوزير وسافر معه للحج، تاقت نفسه للدراسة في مصر. وحين وصل إلى القاهرة ذهب مباشرة إلى نعمان وبذلك حدث لقاء تاريخي تواصل في حب اليمن والسعي لخلاصها وتحريرها مما تعانيه حتى وفاة الزبيري بعد نحو سبع وعشرين سنة.

لقد جمعت بين الزبيري ونعمان كيماء وجودية ورسالة نضالية وارتباطٌ لا تنفصم عراه بقضية الشعب، فأصبحا رمزين لوحدة الشعب، بل رمزا واحدا، وبدءا مسيرة كفاحية طويلة ومتواصلة من أجل التخفيف من معاناة اليمنيين في الداخل والمهجر وحشدهم في سبيل تحرير أنفسهم وتحرير شعبهم. كان الظرف صعبا وكان الناس يجدون أنفسهم عاجزين عن فعل أي شيء في سبيل الإصلاح، وكان المستنيرون القليلون متفرقين، نادرا ما يجمعهم جامع، وحتى لو فكروا بانتقاد الأوضاع لا يذهبون أكثر من الاعتراض في حدوده الدنيا خوفا من بطش النظام وانتقامه. وإذا بالزبيري ونعمان يندبا نفسيهما للعمل باسم الشعب دون تراث منظَّم سابق يمهد للعمل من أجل التحديث. وبدءا معا التفكير في وسائل تطوير أشكال الكفاح لتجاوز العزلة والتخلف.

وكان الشعر القوة المحركة للزبيري، يبعث فيه الشعور بأنه أقوى من الظالمين. كان سلاحه الأمضى في هذه المسيرة الظافرة. وكانت نفس الزبيري ميالة لحمل رسالة عظيمة في مستوى العمل من أجل التغيير دون تراجع. يقول "كنت مفتونا بشعري إلى أبعد حدود الفتنة، فلقد كنت أتناوله في جو روحاني يمنحني الغبطة مضاعفة، ويعطيني ثقة خيالية بالنفس، وأمنا غامضا لا مبرر له من الواقع المحسوس، كما كان يشعرني بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة، وبنزوع إلى الاستعلاء على الاهتمامات العادية، والإيمان بقدرة لا أمتلك في يدي شيئا منها. كنت أحس إحساسا أسطوريا بأني قادر بالأدب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان. لست أدري أذلك من تخريف الخيال الشاعري الجامح أم ومضة من

ومضات الذخر الصوفي السجين في أعماقي"[62]. ولا يستطيع أن يعصف بحياة الشاعر الموهوب ويقذف به في أتون معركة كتلك التي نذر الزبيري نفسه لخوضها حتى آخر لحظة في حياته إلا إحساس بشعرٍ هذه طبيعته، وهذه نبضاته في قلب الشاعر وفي دماغه، وهذا فهم الشاعر لماهيته، وإلا توحدٌ واندماجٌ بين الشاعر وشعره وقضية شعبه على نحو لا يمكن الفصل بينها. ولذلك كان هذا الفهم لوحده تجديدا للشعر وتحريرا له من القوالب الجامدة والصور المتيَبِّسة، والقاموس المستهلك الذي ينتمي إلى الموت وليس إلى الحياة بكل ما فيها من تناقضات وصراعات وصبوات وأحلام ونوازع. وهذه القناعة الراسخة في ذاتها تجديد لوظيفة الشعر والنثر، بل تطوير لرسالة الإنسان في الحياة، وتسامٍ بالإنسان من النوازع الغريزية الحيوانية الأنانية إلى التحليق في ذرى إنسانية رفيعة ونبيلة.

لحظتان بزغتا من قلب التاريخ الآثم فكانتا منطلقا للسير بثبات وصبر ومثابرة لا تقبل الكلل نحو تغيير سير التاريخ في الأرض اليمنية، وأثرتا عميقا على مصائر الشعب اليمني: هما امتلاك الزبيري لشعر غير الشعر السائد ولموهبة فذَّة، شعر صادق وجداني فاعل في التاريخ وفي محاولات تغيير معالمه، واللقاء المبدئي والصداقة المتينة والعلاقة الأسطورية بين الزبيري ونعمان، وهو لقاء حددت وجهته رؤيا مشتركة لمعاناة الشعب وضرورة تحريره من عزلته وانغلاقه ومعاناته، ومن الفقر والجهل والمرض، ومن تشرده في الآفاق بحثا عن لقمة العيش، وبناء مجتمع يرعى مصالح مواطنيه ويحفظ كرامتهم ويوفر لهم العيش الكريم في وطنهم. وقد كشفت وقائع تاريخهما أنهما كانا نوعا من الناس تحركهما المبادئ وتربط بينهما الرؤى والكفاح المتواصل في كل الظروف دون تراجع ودون تنكُّر للصداقة الحميمة المبدئية والإخلاص لقضية شعبهما المضطهد. بل إن الزبيري يتواضع ويلغي دوره العظيم في إبداع الشعر ويعيد كل شيء إلى شعبه المضطهد الصابر فيقول:

الشـــاعرية في روائـــع ســـحرها	أنـــت الـــذي ســـويتها وصـــنعتها
مـــا لي بهـــا جهـــد فأنـــت ســـكبتها	بـــدمي وأنـــت بمهجـــتي أودعتهـــا
أنـــت الـــذي بشـــذاك قـــد عطرتهـــا	ونشـــرتها بـــين الـــورى وأذعتهـــا
وقفـــت لســـاني في هـــواك غناءهـــا	فـــإذا تغنـــت في ســـواك قطعتهـــا

[62] ثورة الشعر، ص. 11.

مـــا قـــال قـــومي آه إلا جئتـــني فكويـــت أحشـــائي بهـــا ولســـعتها[63]

عاد الزبيري من مصر سنة **1941** بعد أن وجد نفسه شاعرا مُجِيدا، لكن لا يرضي طموحه ورغبته في العمل لخدمة الشعب المظلوم أن يتفرَّغ للشعر وحده وأن يكرس حياته لتطوير شعره الذي يرتفع به في كل مرة يطير على جناحيه. بدأ فورا بصياغة برنامج للتطوير والإصلاح سماه "برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" متوسلا الدين وسيلة لتجنب غضب الحاكم الطاغية وانتقامه، باعتبار الدين الأساس الذي يقول الطاغية إنه يبني عليه سلطته. لكن ظنه خاب ووجد نفسه وهو ابن المدينة منفيا في سجن الأهنوم الضائع في جبال العدم. وهنا أدرك أنه يقتحم أهوال الجحيم. ولم يجد في عزلته وتوحده سوى الشعر رفيقا وأنيسا وسفينة نجاة، فنظم شعرا يمتدح به الإمام الطاغية على أمل الخروج من السجن الرهيب والبحث عن وسيلة أخرى غير الطريق الديني الذي ظنه يوما أقرب إلى قلب الطاغية ودعاواه. وهو شعر سلك فيه أسلوب المدح ليخفف عن نفسه عذاب السجن، ليس لينعم بالمغريات التي بدأ الطاغية يُمَنِّيه بها من أموال ومناصب إذا هو تنازل عن نزوعه نحو المطالبة بالإصلاح والتغيير، بل لكي يدرس التجربة ويجدد المحاولة بصورة أنجح وأمضى وأكثر تأثيرا في شعب لم يصل بعد إلى الوعي بحقوقه وبأن الطاغية يسومه سوء العذاب والحرمان.

"لقد كان شعر المدح في هذه الفترة البدائية هو الرائد والمستكشف الأول، وهو المجس العميق الدقيق الذي تغلغل إلى أغوار نفس الإمام، وأعطانا المقاييس والمعايير لتقدير الحد البعيد الذي ذهب إليه الطاغية من التأله والقسوة والاستعلاء والإصرار"[64].

وحين خرج من السجن وعاد من المنفى الداخلي ضاقت عليه صنعاء وخنقت مشاعره، فلحق بمجموعة الشباب الأدباء إلى بلاط ولي العهد أحمد بن يحيى حميدالدين في تعز، الذي كان يحاول كتابة الشعر ويكتب قصائد محنَّطَة متجمدة مثل النظام الذي كان أقوى أمرائه. وحاول الأدباء المستنيرون أن ينفخوا في ذلك الأمير العنيف غريب الأطوار روحا جديدة حلموا أنها ستحركه وتشجعه بما لديه من طموح جامح للحكم على أن يقوم ببعض الإصلاحات الضرورية. ومدحه الزبيري كما مدح أباه من قبله، لكن الشاعر الرقيق وجد أمامه أميرا مشبعا بروح العزلة والانغلاق تشربها وتربى عليها في المراكز القبلية المعزولة،

---

[63] محمد محمود الزبيري، ديوان الزبيري، ص. 238.

[64] نفسه، ص. 21.

مغرما بالقوة وبما توفره من سطوة ومن عجرفة، فاكتشف الزبيري الوجه الحقيقي لذلك الأمير، وتبين له بمرور الأيام أنه وزملاءه من المستنيرين ينفخون في قربة مثقوبة دون جدوى، فأيقن أنه ورفيقة الأقرب إلى نفسه، لا نجاة لهما من بطش هذا الأمير العنيف ومن براثن نظام الاستبداد إلا بالهرب خارج حدود مملكة الظلام والبدء برسم معالم الطريق القادم نحو التحرر من الظلم والاستبداد. فكان هذا الهرب لحظة فارقة في المسيرة الصعبة والمحفوفة بالمخاطر نحو التغيير والتحديث.

ما يجعل هذه اللحظة تاريخية أن كثيرين قبل الزبيري ونعمان وبعدهما قد هربوا إلى عدن وأعلنوا معارضتهم، لكنهم إما عادوا وخضعوا للنظام أو انصرفوا لشئونهم واهتموا بأمورهم الخاصة أو يئسوا أو أُحبِطوا أمام هول المهمة التي وجدوا أنفسهم في مواجهتها في ظروف شديدة التعقيد وأمام خطر الانتقام العنيف الذي يواجه به الطغاة من يتجرأ على معارضتهم أو الاعتراض على أسلوبهم في الحكم.

لكن الزبيري ونعمان لم يتراجعا وبدءا مسيرة طويلة من حشد المستنيرين والأحرار على طريق التغيير.

وقد عبر الزبيري عن تجربته القاسية مع ولي العهد، بعد أن مدحه ونفخ فيه روح البطولة عله يستدرجه نحو الإصلاح والتغيير، فقال:

وكم جاس شعري غاب ليل تحيط بي ... مضرجة أدغاله ومساربه
وصور زهرا، ربما كان زخرفا ... على حيةٍ، أو عين وحش تراقبه
وكم كان ذعري عندما أشرق الضحى ... عليَّ وإذ فتشت ما أنا حاطبه
وإذ أسفر الوجه الذي بِتُّ هائما ... به فرمتني بالدواهي عواقبه
وما ذا على من صوَّر الشيء ظاهرا ... إذا اختبأت ملء الطوايا مثالبه
ولكنه قد يقتل المرء نفسَه ... إذا اختار صِلاً في الظلام يداعبه

ويتذكر هذه التجربة المريرة ويعبر عن موقفه منها في أكثر من مناسبة، ومنها في القصيدة التالية:

أضلني وهم شعر كنت أنسجُه ... سحرا يحول قلب الصخر ألحانا
وهالني شؤم ما استكشفت من جثثٍ ... قد كنت أحسبها من قبل تيجانا

فرحـــت أشـــعل بالقيثـــار مقـــبرة ... المـــوتى وأنفـــض أغـــلالا وأكفـــانا
أصـــوغ للعمـــي منـــه أعينـــا نزعـــت ... عـــنهم وأنســـجه للصـــم آذانا
ومـــا حَمَلـــتُ يراعـــي خالقـــا بيـــدي ... إلا ليصـــنع أجيـــالا وأوطـــانا
يخالـــه الملـــك الســـفاح مقصـــلة ... في عنقـــه ويـــراه الشـــعب ميـــزانا
فهـــاك يا أمـــتي روحـــا مدلهـــة ... عصـــرتها لخطـــاك الطهـــر قـــربانا
كأسـا مـن الشـعر لـو تسـقى الشـموس بهـا ... ترنحـت ومشـى التـاريخ سـكرانا

ومن هنا كان هروب الزبيري ونعمان لحظة تاريخية فارقة وضعت اللبنة الأولى على طريق طويل من كفاح الإنسان اليمني في سبيل تحرير نفسه. يصف الزبيري في رسالة طويلة رحلة العذاب من تعز إلى عدن، ولكنه يصفها بروح من يكتب شهادته للتاريخ ليدل عشاق الحرية على الطريق الصحيح نحو خلاصهم وخلاص شعبهم. ومن الرسالة في شرح الصعوبات التي لاقاها ومعه رفيقه نعمان يقول عن لحظة من لحظات الهرب: "تحسَّستُ لي مضجعا في ذلك المنحدر فلم أعثر إلا على بقعة صخرية ذات رؤوس حادة كنت أضع يدي عليها لتكون حائلا بينها وبين أضلاعي، وغفوت بالرغم من ذلك، ولكنها غفوة متقطعة كنت أستيقظ أثناءها فأحمد الله على أن وضَعَ في قلوبنا هذا الإيمان الذي هوَّن علينا المصاعب وحبَّبَ إلينا المصائب. ولكن كلما تصوَّرتُ فاجعة الأسرة بهذه الليلة خُيِّل إليَّ أن خرابا هائلا يتدهور بين جوانحي"[65]. والرسالة كلها من ملامح تجديد النثر في تلك الفترة المبكِّرة (سنة **1944**) من واقع الحركة الثقافية في مملكة الظلام.

لقد كانت لحظة تاريخية بامتياز، رسمت خط سير الزبيري ونعمان اللاحق في حركة الأحرار المعارِضة، ولحظة فارقة قرر فيها الزعيمان المستنيران الانتقال من مرحلة إلى أخرى في كفاحهما السياسي، من الجهد الفردي إلى العمل المنظَّم الذي تتظافر فيه الجهود الإنسانية وتُحشَد الطاقات لتحقيق نتائج ملموسة سريعة نسبيا. ومن هذه اللحظة فصاعدا بدأت المعارضة تنتظم إما في حزب، مثل حزب الأحرار، وإما في جمعية يمانية كبرى أو في اتحاد يمني، وبذلك سارت المعارضة على طريق صحيح يؤدي في النهاية إلى النجاح.

---

[65] انظر نص الرسالة التي كتبها الزبيري لصديق ساعدهما على الهرب في: علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 182.

ومنذ تلك اللحظة بدأت الثقافة السياسية في اليمن كله تتغير، وتتقبل فكرة الأحزاب السياسة. فقد كان حزب الأحرار حجرا كبيرا ألقي في الحياة السياسية الآسنة فحركها وبعث فيها الحياة. فهو حزب، ولكن ليس أي حزب، بل حزب الأحرار المطالبين بحرية شعبهم كله وانعتاقه من هيمنة قوى الظلام والاستبداد. إنها تسمية متقدمة في ذلك الوقت المبكر من كفاح اليمنيين من أجل التغيير بذرت بذرة الكفاح الصعب والمتواصل لكسر القيود التي تكبل اليمنيين وتمنع انتقالهم إلى العصر الحديث.

ويعلن شعر الزبيري هذا التمرد الأبي الفخور بالإقدام على تحدي الطغاة ومغادرة مملكة الظلام التي حولوها إلى سجن كبير خانق فيقول قصيدته الشهيرة:

خرجنا من السجن شم الأنوف كما تخرج الأسدُ من غابها
نمر على شفرات السيوف ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة إذا دُنِّست بعسف الطغاة وإرهابها
أنفنا الإقامة في أمة تداس بأقدام أربابها
وسرنا لنفلت من خزيها كراما، ونخلص من عابها

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت الحزب والضغوط التي مورست عليه ومنعته من مواصلة نشاطه مما دفع المترددين من المشاركين في قيادته للعودة إلى حظيرة النظام الذي هربوا لمقاومته، نجحت مثابرة الزبيري ونعمان المبدئية وتمسكهما بموقفهما الثابت في الالتفاف على قرار المنع، وتأسيس "الجمعية اليمانية الكبرى"، على غرار الجمعيات والاتحادات الجزئية (باسم مناطق بعينها) التي أسسها الهاربون من مملكة الظلام إلى مستعمرة عدن.

وقد كانت الفترة الفاصلة بين منع حزب الأحرار من النشاط في مستعمرة عدن وإنشاء "الجمعية اليمانية الكبرى" في حياة الزبيري مرحلة حزن وتأمل وشعور بالمرارة كتب فيها قصائد ذات منحى رومانسي لها ملامح فنية مميزة، منها قصيدة "الحنين إلى الوطن" التي يَرِدُ في نهايتها تاريخ غريب أو غير معتاد، يذكر الشهر الهجري والسنة الميلادية (26 جمادى الأولى 1965)، وهو خطأ وقع فيه من أعد ديوان شعر الزبيري للطبع، لأن هذا التاريخ يصادف السنة التي اغتيل فيها الزبيري، ومن حيث الشهر بعد وفاته بحوالي شهر. وهذا يرجّح أن تاريخ القصيدة هو 26 جمادى الأولى سنة 1365هـ-/24 إبريل 1945م. وهي الفترة التي كان فيها الزبيري محبطا مغموما بسبب منع البريطانيين لحزب الأحرار من النشاط

في مستعمرة عدن وما تلاه من خلاف بين الأحرار الهاربين إلى عدن وعودة بعضهم إلى حظيرة ولي العهد أحمد في تعز وتخليهم عن المشاركة في نشاط حركة الأحرار، واضطرار الزبيري إلى العمل مدرسا في إحدى المدارس الأهلية ليكسب قوت يومه. تكشف القصيدة معاناة الشاعر في هذه الأجواء المضطربة وإحباطه وبُعده عن أهله وأصحابه ومرابع صباه في قوله:

آه، ويـح الغريـب مـا ذا يقاسـي ... مـن عـذاب النـوى ومـا ذا يعـاني
كشـفت لي في غـربتي سـوءة ... الـدنيا ولاحـت هناتهـا لعيـاني
كلمـا نلـت لـذة أنـذرتني ... فتلفـتُّ خيفـة مـن زمـاني
وإذا رمـت بسـمة راح مـرأى ... وطـني فاسـتفزني ونهـاني
لـيس في الأرض للغريـب سـوى ... الـدمع ولا في السماء غـير الأمـاني
حطميـني يا ريـح ثم انثـري أشـلاء ... روحـي في جـو تلـك الجنـان
اطفئـي لـوعتي بهـا واغمسـي ... روحـيَ فيهـا وبَـرِّدي ألحـاني
وصـلي جـيرتي وأهلـي وأحبـابي ... وقصـي علـيهمُ مـا دهـاني

ويتكرر هذا النفس الرومانسي في قصائد أخرى مثل قصيدة "حنين الطائر" التي يقول فيها:

أنا طـيرٌ حطـم المقـدور ... عشـي وجنـاحي
ورمـاني في نثـار ... مـن دمـوعي ونـواحي
وحطـام مـن بقـايا ... وطـن غـير صـحاحي
لم أجـد سمعـا فأفرغـت ... أنيـني في جراحـي
وتنبَّهـت علـى أنقـاض ... عـشٍ مسـتباحِ
لا أرى إلا ظلامـا ... في غـدوي ورواحـي

وكذلك قصيدة "البلبل" التي منها:

بعثـتَ الصـبابة يا بلبـلُ ... كأنـك خالقهـا الأولُ
غنـاؤك يمـلأ مجـرى دمـي ... ويفعـل في القلـب مـا يفعـلُ
سـكبتَ الحيـاة إلى مهجـتي ... كأنـك فـوق الـربى منهـلُ
ترتـل فـن الهـوى والصـبا ... شـجيا وإن كنـت لا تعقـل

وما الحب إلا جنون الحياة وجانبها الغامضُ المشكِلُ
نُكِبتَ بما نكب العاشقون وخُمِّلتَ في الحب ما حُمِّلوا
هدوؤك في طيه مرجلٌ وريشك من تحته مشعل

ومن الملاحظ أن الدكتور عبدالعزيز المقالح يقول في مقدمته لديوان الزبيري إن قصيدتي "حنين الطائر" و"البلبل" قد كتبتا في المرحلة التي تلت سقوط حركة 1948 الدستورية "وما تلاها من شعور بالإحباط وإحساس بالضياع"[66]. لكن هذا يخالف التاريخ المُثبَت في آخر قصيدة "البلبل" وهو "15 ربيع الأول 16/1356 فبراير 1946"[67]. ويبدو أن القصيدتين قد كتبتا في فترة عدم اليقين الذي رافق حياة حركة الأحرار بقيادة الزبيري ونعمان في مستعمرة عدن، ومنع نشاطها واضطرار قادتها للعمل بالتدريس لكسب عيشهم وانشغالهم بالعمل الوظيفي الذي حصلوا عليه عن مواصلة الكفاح الذي تركوا أهلهم وزجوا بأنفسهم في مواجهة النظام في سبيله.

وقد كانت فترة صعبة ما لبثت أن انزاحت وعادت حركة الأحرار أقوى مما كانت عليه، وإذا بها في ظرف سنتين من تأسيس الجمعية اليمانية الكبرى تنجح في جذب الكثير من رجالات السلطة الاستبدادية إلى صف المعارضة بمن فيهم الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى، والقيام بحركة دستورية أخرجت الطاغية، الذي هربوا من أجل معارضته، من الحياة، وأصبح الزبيري وزيرا للمعارف (للتربية والتعليم). لكن الحركة أخفقت خلال فترة قصيرة وخرج من صنعاء بأعجوبة قبيل سقوطها[68]، وبدأت من هنا رحلة عذاب جديدة، وكان مصير الكثير من المستنيرين أمثال أحمد المطاع وأحمد الحورش ومحيي الدين العنسي ومُحَمَّد المَسمَري وزيد الموشكي الإعدام بالسيف في مجزرة مروِّعة كانت كارثة على حركة الأحرار هدمت كل ما كانت قد بنته، وغيبت الكثير من رجالها في غياهب السجون وشتتت البقية، وصرفت عنهم الكثير من المتعاطفين، ونشرت القنوط واليأس من قدرتها على فعل أي شيء في أوساط

[66] انظر مقدمة المقالح لديوان الزبيري، ص. 22.

[67] ديوان الزبيري، ص. 443.

[68] خرج، في آخر طائرة مصرية غادرت صنعاء، لمقابلة وفد الجامعة العربية الذي توقف في السعودية، وكانت مهمة الزبيري استعجال قدوم الوفد العربي للوساطة وتهدئة المعارك قبل أن تسقط صنعاء في أيدي القبائل المحاربة.

الناس لدرجة جعلت الكثير من الناس يهرب ممن يقال عنه إنه دستوري كما يهرب من أي وباء خوفا من أن يلحق به الضرر.

وقد عبر شعر الزبيري عن الفجيعة بهذه الكارثة فقال:

أنا راقبت دفن فرحتنا الكبرى وشاهدت مصرع الابتسامة
وإذا بالدستور يصرعه البغي ويلقَى كصانعيه حِمامه
وإذا الشعب بعدما حطم الأصفاد عنه لم نلق إلا حطامه
نحن شئنا قيامه لفخارٍ فأراه الطغاة هول القيامة

ويعبر عن حزنه وفجيعته بما حدث في مقطوعة شعرية يتوحد فيها بشعبه وبمأساته وتتفجر أحاسيسه ألما وعذوبة وأنينا وصدق مشاعر فيقول:

ما كنت أحسب أني سوف أبكيه وأن شعري إلى الدنيا سينعيه
وأني سوف أبقى بعد نكبته حيا أمزِّق روحي في مراثيهِ
فإن سلمت فإني قد وهبت له خلاصة العمر ماضيه وآتيهِ
وليس لي بعده عمرٌ وإن بقيت أنفاس روحي تفديه وترثيهِ
فلست أسكن إلا في مقابره ولست أقتات إلا من مآسيهِ
وما أنا منهُ إلا زفرة بقيت تهيم بين رُفاةٍ من بواقيه
إذا وقفت جثا دهري بكلكلهِ فوقي وجرَّت بيافوخي دواهيهِ
وإن مشيت به ألقت غياهبُهُ على طريقي شباكا من أفاعيهِ
تكتلت قوة الدنيا بأجمعها في طعنة مزَّقت صدري وما فيهِ

هكذا يتحد بكوابيس وطنٍ يحيط به من كل الجوانب، يضغط على قلبه ودماغه بقوة، ويمد أذرعه لينتزع روحه ويلتف حوله كالأفاعي الماحقة، وطن تحول إلى مشانق ومقابر ومآسي، لا يترك له ثانية تملص من مأساته ومن رؤية رفاقه وهم يذبحون ويعذبون ويسحلون ويسجنون.

ولأول مرة منذ أن بدأ مسيرة الكفاح مترافقا مع زميله نعمان يجد نفسه وحيدا يفكر فيما عساه أن يفعل ومن أين يبدأ وما السبيل إلى لملمة الجراح وجمع الأشلاء والشظايا للبدء بالخطوة الأولى الضرورية لإعادة المسيرة الكفاحية لحركة الأحرار المعارِضة من جديد. لم

يداخله اليأس قط، ولم يفكر في أية لحظة بإلقاء السلاح والاستسلام للكارثة التي كانت أقسى مما تصور في أي وقت وأثقل مما تستطيع أعصابه الحساسة ومشاعره المرهفة أن تتحمل. لكنه لم يجبن ولم يهرب ولم يتخل عن شعبه حتى وهو مجرد من كل عون، مطاردا في كل أرض. ووسط التيه وإغراء اليأس والقنوط يتمالك الشاعر نفسه كقائد وطني مؤمن بقضية شعبه، وينسى كل شيء ما عدا شعبه المعذب، ورفاقه الذين أعطوا أغلى ما يمكن أن يقدم الإنسان في سبيل وطنه. يتلمس الطريق الذي ينبغي أن يسلك، ويبدأ الخطى كرضيع يحاول أن ينصب قامته ويخطو خطواته الأولى على طريق الحياة. يتخطى الزبيري ركام الظلام والدموع والأنَّات، فيقول:

من وراء الأكذوبة المعبودة والتهاني الذليلة الرعيدة
والمحاذير والمخاوف تغتال الضحايا المفجوعة المفؤودة
والقنوط الوحشي يفترس الأحرار في ظلمة السجون البعيدة
ألمح الشعب قابعا يدرس الثورة كيما يأتي بأخرى جديدة

ويجد الزبيري نفسه وهو يعاني مرارة الكارثة لاجئا مطرودا من كل أرض عربية، مشرَّدا، يحاول أن يجد له ملاذا في باكستان التي لم يمض على استقلالها سوى سنة واحدة[69]. لكنه وجد نفسه هناك مطاردا بطلب السلطات اليمنية تسليمه كمجرم، كما وجد نفسه، وهو الشاعر الذي يقدمه شعره في كل مكان ينزل فيه، غريبا يفصله عن البيئة التي قَدِم إليها حاجز اللغة، ينطبق عليه قول أبي الطيب المتنبي:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسانِ

وكان أول نجاح له في باكستان التملص من طلب تسليمه باعتباره ممن شاركوا في ثورة الدستور. ويحاول بصعوبة شق طريقه والعثور على وسيلة للبقاء والنشاط والمعارضة المستحيلة وحيدا في هذه البيئة الغريبة عليه. وكان أصعب ما واجه أن قضيته، قضية اليمن، فيها مجهولة، بعيدة عن هموم الباكستانيين المشغولين بصراعهم مع جارتهم الهند وبالفرز الطائفي

[69] استقلت الهند وباكستان سنة 1947 بعد حرب دامية مروعة بين المسلمين والهندوس الذين لم يحاربوا الاستعمار البريطاني طوال احتلاله لبلادهم خلال أكثر من ثلاثمائة سنة، لكنهم اقتتلوا فيما بينهم في مذبحة مروِّعة تركت بصماتها في العلاقات الهندية الباكستانية حتى الآن.

العنيف الذي نشأ عن الفصل المفتعل لباكستان إسلامية تريد أن تجتذب المسلمين من كل بقاع الهند إلى كيان موزع بين شرق الهند (بنجلاديش الحالية) وغربها (باكستان الحالية) وبينهما مسافات شاسعة من جهة، وهند ذات غالبية هندوسية في أغلب مساحة شبه القارة الهندية من جهة أخرى. وأحس الزبيري في باكستان، في بيئة على الرغم من كونها إسلامية، بغربة داخل الغربة، غربة اللغة وغربة الوجود في بلد لا يعرف عن اليمن ومأساتها شيئا ولا يهتم بها.

وكان رفاقه الأحرار في اليمن يساقون إلى الإعدام وتسحب جثثهم في الطرقات، وبعضهم معذّبون في ظلمات السجون أو مشردون يبحثون عن مأوى فيقول:

خـــذلتني حـــتى المقـــابر لمـــا وجَـدَتني في غمـرة الهـول وحـدي
أتـــوقَّى مـــن المصـــارع كـــيلا يتنـــاهى إلـــيكمُ الخطـــبُ بعـــدي
يطلـــب الهـــم للحريـــق وللتعـــذيب مـــني أضـــعاف لحمـــي وجلـــدي

ويلتقي بشخصية عربية ساعدته على تحمل مشاق الحياة، فيكتب إليه قصيدة لا يَنسَى فيها قضيته التي تستولي على شغاف قلبه وكل مشاعره في كل مكان وفي كل حين:

أنـــت الـــذي حطمـــت أغـــلالي وكنـــت بهـــا رهـــين
أطلقـــت مـــن روحـــي شـــهابا في ســـماء الثـــائرين

وســـلَلتَني غَضَـــبا تـــذل لـــه رقـــاب الظـــالمين
ســـددتني ســـهما إلى أقصـــى مجـــال الطـــامحين

أنا شمعـــة كـــدحت أشـــعتها وراء الكـــادحين
مـــدَّت بشـــعلتها إلى أحـــداقهم مـــد المعـــين

تكـــوي وتطفئهـــا دمـــوع البـــؤس مـــن حـــين لحـــين
يشـــكو ســـناها جهـــل عميـــان وغـــدر المبصـــرين
روحـــي وإن حلقـــتُ عـــبر الكـــون في وطـــني ســـجين

وكان مؤمنا بشعره وبقدرة هذا الشعر، حتى وهو لاجئ في باكستان، على هدِّ مملكة الطغيان وبناء عالم سعيد يخرج اليمنيين من مأساتهم وبؤسهم. ولعل هذا الإيمان الأسطوري

مصدر الاطمئنان الروحي لديه حتى في أحلك الظروف بأنه حتى لو لم يبن الدولة الحديثة التي يكافح من أجل قيامها، يستطيع أن يبني لوطنه مملكة الشعر والأدب. قال:

قوضتُ بالقلم الجبار مملكةً ... كانت بأقطابها مشدودة الطُنُبِ
فإن فشلتُ ولم أنهض بدولتنا ... الكبرى لشعبي، ولم أظفر بمطَّلبي
فسوف أبني له مجدا من الأدبِ ... العالي، يبوّئه في أرفع الرتب

ويصف لحظات شعرية يمتزج فيها صفو التفكير بالحلم الجميل بالأمل العظيم وهو في غياهب الغربة ومعاناة التيه، في مقطوعة شعرية بديعه تضج بالحركة والتوتر والخلق والإبداع، تهب فيها رياح الشعر وتتراقص في عينيَّ الشاعر وفي مخيّلته، تقترب من أصابعه وتبتعد في الوقت نفسه، تهجم وتتملص، تقبل وتدبر، تنصرف حانقة وتعود فرِحة مسرورة، فيمسك بها ويبني بها مصائر فردية وجماعية، ويهجم بها ويدافع، ويتقي الأعداء والخصوم، ويوزع البشرى للمنهكين المتعبين ويفتح لهم أبواب السماوات والأرض كي ينعموا بالسعادة والسلام والعدل والأمان فيقول:

أحس بريح كريح الجنان ... تهب بأعماق روحي هبوبا
وأشعر أن القوافي تدب ... كالنمل ملء دماغي دبيبا
فهذا يزوغ وهذا يروغ ... وذلك يذعن لي مستجيبا
وذاك يفارقني يائسا ... وهذا يواعدني أن يؤوبا
ومنها أصوغ حياة الشعوب ... وأذكِي على قاتليها الحروبا
ومنها أوزع للعالمين ... طهرا وأنشر في الأرض طيبا
ومنها أسودُ ومنها أجودُ ... ومنها أقارع عني الخطوبا
ومنها أصوِّر هذا الوجود ... وأكشف منه البديع العجيبا

وما أن تقوم ثورة 23 يوليو 1952 في مصر حتى يسارع إلى القاهرة التي كانت تستعد لإطلاق دعوة القومية العربية وانطلاق حركة التحرر العربية بقيادة الزعيم العربي جمال عبدالناصر. وفي مصر العروبة، التي يعرفها منذ أن كان طالبا فيها في نهاية الثلاثينات ومطلع الأربعينات وبدأ فيها تعليمه في دار العلوم وحيث بدأ شعره يحلق ويُعرَف عربيا، أعاد تكوين حركة الأحرار المعارِضة، وأنعش أمال الحالمين بالتغيير من جديد بتجاوز كارثة سحق الحركة

الدستورية. وكانت هذه المرحلة أيضا فرصة لإعادة النظر في أوهام الماضي بالاستعانة ببعض الدول العربية وبالجامعة العربية في مساندة كفاح شعب اليمن من أجل التغيير. فقد اكتشف الأحرار أن ذلك وهم وسذاجة سياسية كانت من أسباب هزيمة مشروع التغيير. يقول الزبيري إن الأحرار كانون مؤمنين بأن الدول العربية ستساندهم ولم يكن ذلك تكتيكا سياسيا بل إيمانا وقناعات حقيقية. فاكتشفوا بالتجربة أن ذلك كان أملا براقا ومن قبيل المستحيل[70]. ومع ذلك يرى أبو بكر السقاف أن "لإيمان الزبيري بالوحدة العربية وجهه المحلي. فقد كان في كل نصرٍ يحرزه الوطنيون العرب في أي قطر عربي بشرى بانتصار الثورة في اليمن. وكان الإمام يرى ذلك نذيرا باليوم الأسود. إن إدراك الطرفين (الأحرار – الإمام) لأهمية العامل العربي في سير الأحداث باليمن جعل كلا منهما يسابق الآخر إلى كسب ود الأقطار العربية، وكلاهما حاولا دائما ملء الفراغ السياسي الذي نجم عن إفلاس الإمامة كنظام عتيق في طريق الانقراض". فانضم الإمام "إلى اتحاد الدول العربية على إثر الوحدة المصرية السورية تارة، وإرسال نجله في زيارات ودية" ليغلق باب التقاء الأحرار بمصر عبدالناصر[71].

لكن إحساسا لازم الزبيري بتميز قضية اليمن وخصوصيتها، وهو ما جعله يتجنب الاقتراب الزائد من التيارات الفكرية القومية واليسارية، لأنه اعتبر الاقتراب منها هجرا لأرضه وتحليقا في سماء غريبة، وإن لم يكن هذا الشعور بخصوصية القضية اليمنية تخليا عن بعدها القومي. وانتهى إلى الرفض التام للاعتماد على الأشقاء العرب، وعبر صراحة عن معارضته لأن تصنع مصر ثورة تخلص اليمن من الطغيان أو تساعد الأحرار للقيام بثورة، لأن ذلك يعني أن يُدمَغَ الشعب بوصمة في جبينه إلى الأبد، مضيفا أن "الشعب هو الذي ينشد الحرية، وهو الذي يجب عليه أن يدفع ثمنها كاملا"[72].

كانت حياة الزبيري من أولها إلى آخرها قصيدة حب وكفاح مكرسة للعمل في سبيل تحرير شعب اليمن من الظلم والاستبداد. وكان شعره كله أيضا قصيدة واحدة مسخرة للغرض نفسه، وكانت الوحدة والاندماج بينه وبين شعره وقضية شعبه من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى عناء لاكتشافها. كان حبه لشعبه والكفاح من أجل تحريره من الظلم والاستبداد

---

[70] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 102 . 104.

[71] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 43 . 44.

[72] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 106.

الغرض الأوحد لشعره. لم يكن لشعره من أغراض أخرى، فلم يقترب من وصف الطبيعة ولا من شعر الحب والمرأة. وحين اقترب في القليل النادر من الرثاء كان قريبا من السياسة أو لتذكُّر صديق، وحين تناول المدح في مرات قليلة كان بغرض تمهيد الطريق لكفاحه الوطني وللمطالبة بالإصلاح. فجعل هذه الأغراض الجزئية روافد لغرضه الأساس، الكفاح لتحرير شعبه والحث على التغيير وعلى خروج اليمن من مأساتها. ولذلك انتشر شعره بين اليمنيين وجسد الدعوة إلى الثورة وبشر بها ونشر أفكارها، وهذا ما جعل شعره في تلك الفترة أكثر انتشارا في أيدي القراء وبخاصة الشباب المستنير الذين تعلموا أبجديات الثورة والتغيير من قصائده.

ويُلاحظ أن الزبيري كتب شعرا كثيرا حين كان بلا مسئوليات تنظيمية سياسية أو كان قليل الانشغال بقيادة حركة الأحرار المعارِضة. فقد كتب الكثير من شعره في مرحلة تعز حين كان ما يزال يبحث لنفسه عن مكان للعمل في سبيل الإصلاح، ثم بعد الهرب إلى عدن وتأسيس حزب الأحرار، ثم بعد مصرع الابتسامة بسقوط الحركة الدستورية وإعدام الكثير من رفاقه الأحرار وسجن البقية أو تشريدهم، وكذلك عندما كان لاجئا مطاردا في باكستان. لكنه كتب القليل من الشعر خلال الفترة التي تحمَّل فيها مسئولية إعادة إحياء حركة المعارضة وقيادتها وحتى قيام الجمهورية. ولعل هذا أحد أسباب قوله "فروحانيتي جنى عليها الأدب، وأدبي عوقب بالسياسة، فزجت به في المعارك المريرة الطويلة وانتقمت منه شر انتقام"[73].

وقد فاجأ قيام الجمهورية على أيدي مجموعة من الضباط الشباب حتى أكثر المعارضين تفاؤلا. لم تتوقع المعارضة هذا التغيير ولم تستعد له، ولكنها التحقت به ولم يكن أمامها سوى تأييده. إذ لم يأتِ الضباط الذين أحدثوا التغيير من حركة الأحرار المعارِضة وإن كانوا من ثمار عملها وكفاحها الطويل ومتأثرين بأفكارها وبمطبوعاتها، وبخاصة بأشعار الزبيري. وقد عبروا عن اعترافهم بدوره واحترامهم لنضاله من خلال تعيينه وزيرا للتربية والتعليم في أول تشكيلة حكومية جمهورية. لكن قيادة حركة الأحرار وجدت نفسها بمرور الأيام في موقف المعارضة الجمهورية للضباط الذين قاموا بالثورة وتولوا قيادة معركة الدفاع عن النظام الجمهوري الجديد. وفرض اتساع المعارك وضخامة التحديات التي واجهتها الجمهورية في كل

[73] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 10.

المجالات الاعتماد على مزيد من القوات المصرية في المعارك وعلى المساعدة المصرية لإحداث تغييرات سريعة لتحديث الإدارة والاقتصاد وخدمات التعليم والصحة وغيرها. وقَدِمت جماهير جديدة من عدن ومن الخارج والداخل وكان لها مطالبها وشعاراتها ومؤثراتها الثقافية. وبدأت تتبرعم ثقافة جديدة وأفكار جديدة وشعارات جديدة بفعل الانفتاح على الخارج وكسر الحواجز وانطلاق الأحلام والتطلعات الجمهورية الجديدة. وسرعان ما وجدت قيادة حركة الأحرار نفسها في موقف المصنَّف بأنها تقليدية، واتُّهِمت بأنها لم تكن من المناصرين للتغيير الجمهوري، وأن مطالبها تقتصر على القيام بإصلاح النظام وليس تغييره.

وهكذا وجد الزبيري نفسه لا يتفق مع القيادة الجمهورية الجديدة في نظرته لسير الأمور وقيادة الحرب والسعي لتحقيق السلام حتى وقد كانت القيادة الجمهورية توكِل إليه مهمة تمثيل الجانب الجمهوري في كل محاولة للتفاوض من أجل تحقيق السلام، كما حدث في لقاء إركويت في السودان للبحث عن سبل للاتفاق بين اليمنيين على إيقاف الحرب وتوقُّف الدعم الخارجي للملكيين وانسحاب القوات المصرية من اليمن. وفي الأخير قام في شهر مارس 1965 بمخاطرة كبيرة ناتجة عن قناعة راسخة لديه بأن الجمهورية والسلام لن يتحققا إلا بكسب القبائل المحاربة إلى صفهما، وأن البقاء في المدن والاكتفاء بالعمل في أوساط السكان المؤيدين للجمهورية لن يكفي لتحقيق الانتصار. ولذلك خرج إلى قبائل المنطقة الشمالية الشرقية من الجمهورية للعمل في سبيل السلام. كان واثقا من أن تاريخه يشفع له، وأن شعره يسبقه، وأن القبائل المحاربة ستتفهم دعوته وتلتحق بها وبذلك يتحقق السلام وتتوقف الحرب وتخرج القوات المصرية من اليمن لأن الحاجة لوجودها ستنتفي باتفاق اليمنيين فيما بينهم على أسلوب يرتضونه لحكم بلادهم. وقد أثبتت التجربة أن محاولته النبيلة لإيقاف الحرب وتحقيق السلام قد كانت مغامرة غير محسوبة لم تأخذ في الاعتبار التغييرات التي طرأت على سوق الحرب والإقبال عليه في ظل بطء التغييرات الاقتصادية والاجتماعية بسبب الحرب الشرسة التي شُنَّت على الجمهورية.

وأخيرا تعرض للاغتيال في وسط القبائل التي كافح من أجل تحسين ظروف حياتها وتعليمها وإشراكها في الحياة العامة. وكانت النهاية قاسية على أيدي جلادين لا ضمائر لهم ولا يكترثون بحياة إنسان بذل حياته كلها من أجل تغيير أوضاع بلادهم وإنصاف المظلومين فيها ومنحهم كل الفرص لصنع حياة أفضل لهم ولأبنائهم من بعدهم، وإخراجهم من ليل

الفقر والجهل والبؤس إلى حياة تليق بالبشر في العصر الحديث. قليلون هم الذين يملكون فضيلة انسجام القول والعمل، وقد كان الزبيري في مقدمتهم. وقد دفع حياته ثمنا لمحاولته اجتراح معجزة جعل القبائل المحاربة صانعة سلام واستقرار[74]. ومع أنه أخفق فيما أراد أن يحقق في لحظاته الأخيرة، فإننا لا نملك سوى الانحناء أمام نبل المحاولة وفداحة التضحية. فكان دمه المراق على أرض اليمن آخر قصيدة مأساوية عبرت عن توحُّد شعره ونثره وحياته كلها وأحلامه وحبه لبلاده وكفاحه من أجلها:

بحثــتُ عــن هبــةٍ أحبــوك يا وطــني فلــم أجــد لــك إلا قلــبيَ الــدامي

وهكذا يمكن القول إن شعر الزبيري قد انتقل بالشعر في اليمن من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى أخرى. كان الشعر قبله نظما محنطا تقليديا وسطحيا، لا روح فيه ولا حياة ولا نبض. وكانت القصائد التقليدية سردا تقريريا لحوادث ولأخبار وعبارات جوفاء، ومجاملات فارغة، فيها الكثير من الخواء ومن الافتعال. فجاء الزبير وأوجد معجزة تجديد اللغة والمشاعر والمضامين، ودمج الشعر والحياة وقضية الإنسان اليمني في رحيق يملأ الوجدان ويعصف بالأحاسيس ويجدد الحياة كلها. ومع أن موهبته الشعرية كانت عظيمة، فإن ما أعطاها الفرصة لتحلِّق في سماوات الشعر والتعبير الحالم هو هذا الدمج الذي نجح الزبيري في اجتراحه بين الشعر وحياة الشاعر والقضية التي نذر نفسه لها، فكانت المعجزة الشعرية الكفاحية الجميلة التي جعلت الزبيري ساحر الشعر وحولت الشعر إلى وسيلته للسباحة في سماوات الخيال والإبداع وجمال الروح والمعنى، والصعود إلى ذرى لم يبلغها أي شاعر يمني معاصر له.

مأساة واق الواق

لم يكن الزبيري شاعرا مناضلا فحسب، بل كان صحفيا وكاتبا ألَّف الكثير من النصوص. لكن الملحمة التي كتبها بعنوان "مأساة واق الواق" تجربة خاصة في الكتابة عن

---

[74] يذكر الشيخ الأحمر في مذكراته أن الملكيين أعدوا للزبيري كمينا في برط وقتلوه، وأن القبائل قبضوا على القتلة ولم يسلموهم للحكومة في صنعاء بل إلى الشيخ الأحمر الذي سجنهم في خَمِر. واعترف القتلة في التحقيق أنهم مرسلون من محمد بن الحسين حميدالدين، الذي وصل إليهم رسول منه برسالة ومعها كمية من الذهب. "وتم القبض على الرسول ومعه الرسالة والذهب، غير أن القتلة فروا من قلعة مهلهل (في خمِر) ومعهم بعض حراس القلعة الذين أخرجوهم" (مذكرات الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، ص 99 . 100)

القضية نفسها التي نذر لها شعره وحياته كلها. وهي ملحمة مهمة لأكثر من سبب، فهي تتعامل مع واقع العزلة التي كانت مفروضة على اليمن بطريقة السرد الروائي والخيال، وتصوِّر واقعا أغرب من الخيال، بل لو أن روائيا غرائبيا أراد أن يتخيل عالما غريبا لما استطاع ابتكار ما هو أغرب مما تعيشه "مملكة واق الواق" التي لا ينتبه لوجودها أحد ولا يتصور أحد أنها موجوده في عالمه وعصره، ويتجاهلها الجميع، وهو ما يفرض على الراوية، العزي محمود (الذي ليس سوى مُحَمَّد الزبيري نفسه من حيث أن من المعتاد في صنعاء تسمية مُحَمَّد بالعزي) تحدي إثبات أن بلده موجود حقيقة وليس من بنات خياله الشعري الحالم. كما تعبر الملحمة عن الأوضاع التي كان الأحرار يعملون فيها لتغيير واقع صعب يهيمن على بلادهم، ويكافحون لجعل العالم من حولهم يتفهم قضيتهم ويتعاطف معها. وفي الوقت نفسه، تعكس الملحمة مرحلة من مراحل الكفاح في سبيل التغيير حين كان العمل جاريا لكسب القبائل المحاربة إلى صف التغيير واجتذابها من الصفوف المؤيدة للطغيان إلى مسيرة البناء الجديد لوطن يحتاج إلى جهود جميع أبنائه ليبني حياته الجديدة الكريمة.

يستوحي الزبيري في "مأساة واق الواق" المدينة الفاضلة وقصة الإسراء والمعراج في التراث الإسلامي ليرسم بالكلمات قصة رحلة يقوم بها في الحلم إلى الجنة يلتقي خلالها بثلة من الشهداء الذي ضحوا بحياتهم من أجل اليمن. تبدأ الرحلة في شهر مبارك، هو شهر رمضان، لأنه شهر تخيم عليه أجواء روحانية وتحل فيه ليلة القدر التي تُفتَحُ فيها أبواب السماء لأهل الأرض "ليلجأ إليها المضيعون والمروَّعون، وتنفتح فيها أرواح البشر للالتقاء بعالم الروح في الملأ الأعلى". ليلة يحلم بملاقاتها الجميع ويتمنى الجميع أن تتذكرهم وتستجيب لرجائهم، لكنها تباغتهم وتأتي فجأة في وقت لا يعرفون متى حل ولا متى غادر حاملا معه هداياه ووعوده وأحلامه.

يحشد الزبيري للملحمة شخصيات أغلبها واقعية عاشت وكافحت في سبيل التغيير وضحت بحياتها من أجله. يعرف الكثير منهم شخصيا وعمل معهم في حركة الأحرار الدستوريين وسجنوا وعذبوا وأعدموا على مذبح الحرية. يستدعيهم في مشاهد الملحمة في عالم الروح بعد أن اعتقد الطغيان أنه أخفاهم إلى الأبد وتخلص من إزعاجهم لمملكته، لكنهم يعودون في صفحات الملحمة أكثر نشاطا مما كانوا وأصلب عودا، بإيمان لا يتزعزع بالتغيير وإنصاف المظلومين وتحرير المسجونين وتوفير مقومات الحياة الكريمة للمتعبين. يزيدهم الغياب

الذي اعتقد الطغيان أنه قد فرضه عليهم حضورا وفعالية في العمل لتحرير شعبهم، يجتمعون بحرية دون أن يستطيع بطش الطغيان أن ينالهم، ويناقشون بجرأة وحماسة لتحقيق ما عجز الأحياء عن تحقيقه.

تبدأ الحكاية بذهاب الراوي، العزي محمود، حزينا إلى الأزهر، فيرى قرب المحراب مجموعة من علمائه يتناقشون في أمور الدنيا والدين. يتناولون أحزان الأرض في كل مكان دون أن يشيروا ولو مجرد إشارة إلى معاناة وطنه المعذَّب أكثر من أي بلد آخر في العالم. يتقدم منهم ويصافحهم ويعرفهم بنفسه وببلده. وحين ذكر لهم أنه من "مملكة واق الواق" استغربوا واندهشوا واحتاروا وظنوه يمزح، لكنه أكد لهم أنه يتحدث عن بلد حقيقي واقعي إلا أنه ضائع ويتيم. واصلوا إنكار وجود بلد على الأرض اسمه "واق الواق". ويتواصل الحوار على هذا النحو بين تأكيد العزي محمود على وجود بلده وإنكارهم أو شكهم في صدق ما يقول، خاصة وأنه يتحدث عن وطنه بأسلوب شاعري روحاني يوحي بأنه يحلق في الخيال والأوهام. وحين سألوه لما ذا لم يكتشف الجغرافيون المحدثون هذا البلد وقد اكتشفوا كل خبايا الأرض، ولما ذا لم يذكروا اسم هذا البلد في كل ما ينشرون من مطبوعات جغرافية، رد العزي محمود عليهم بأنه قد لا يكون للقوى العظمى مصلحة في اكتشاف وطنه. ولأنه في مصر ولم يجد غيرها ملاذا يأويه ويسمح له بمواصلة كفاحه من أجل شعبه، ولأنه أيضا كان يؤيد قيادة جمال عبدالناصر لحركة التحرر العربية، التمس العذر لمصر قائلا إنها لا تستطيع أن تتحرك لمساعدة وطنه لأنها تحتاج إلى إجماع الدول العربية.

ولكي يؤكد لهم حقيقة أن وطنه موجود على وجه الأرض يقترح عليهم تنظيم جلسة لتحضير الأرواح في الليلة المباركة من شهر رمضان في الجامع الأزهر تستطيع كشف أسرار "واق الواق" بعد أن عجزت جميع الطرق المعقولة عن الإقناع بوجود هذا البلد المجهول. ويرفض علماء الأزهر في البداية اللجوء إلى تحضير الأرواح ويعتبرونه ضربا من الخرافات ولكنهم بعد نقاش بين قبول ورفض يقبلون اللجوء إلى التنويم المغناطيسي لوضع نهاية لهذا الجدل والوصول إلى معرفة حقيقة "واق الواق".

وينتقل الراوي إلى مسجد الحسين في القاهرة وينقل صورة مشهد مسرحي يجري فيه، يفيض بالتفاصيل النابضة بالحركة، بين من يصلُّون، ومن يرتلون القرآن، ومن ينشدون الأناشيد الدينية ويرقصون، وجماعات في المنعطفات والقهوات المجاورة يدخنون الشيشة

ويتناولون الشاي ويتسامرون. يصور مشهدا متدفقا بتفاصيل الحياة. وقبل بدء جلسة التنويم المغناطيسي اقترحوا أن يكون العزي محمود الوسيط الذي يُستَخدَم، فقَبِل المهمة بفرح قائلا "لا أحَبُّ إلي من أن أذهب بروحي إلى أجواء بلدي الحبيبة وأنقل لكم بأمانة وإخلاص كل ما أشهده هناك وأراه"[75].

وأحس الراوية في بداية رحلة الحلم كأنه ميت، تحاول روحه أن تنطق وأن تتحرك دون جدوى، إلى أن استجابت روحه للجاذبية السحرية فبدأ لسانه المضطرب المتلجلج النطق ليكشف للعالم السادر عن اليمن، هذا البلد العجيب المجهول المغيَّب، عبثية وظلم الاتجاه نحو البحوث الكونية بينما يوجد على الأرض بلد لا يزال مجهولا ينصرف عنه الجميع، ولا يأبهون بمصيره، ويتعامون عن مأساته.

كان الراوية يتحرَّق شوقا للقاء بلده المُبعَد عنه. وحين أُعطِي إشارة بدء الرحلة انطلق بحرية، طائرا كالنسيم في عالم الروح، في عوالم مجهولة ساحرة. أحس بحضور روحاني للملائكة يعبرون بين النجوم ويثيرون الحيرة والخوف والفزع. حاول أن يفر خوفا من أن تتحطم النجوم فوق رأسه فانقض نحوه ملاك عملاق جسده من ضوء الشمس يسأله عما يريد. وانطلق الملك نحو المجهول. وتعلق الراوية بريشة من ريشه ليحمله معه حتى سمع صوت حورية جميل يغني بيتين من شعره. فإذا به صوت لميس ابنة أسعد الكامل التي أخبرت الملاك أن الراوية من أحفادها. وحين سألها إن كانت تعرف "واق الواق" تحسَّرت قائلة "هو البلد المضطهد اليتيم الذي أجمع العالم على دفنه حيا، فأقسمت أرواح الشهداء ودماؤهم ألا يحرر الشعب إلا نفسه أو ينقرض"[76]. ويفرح أنها تعرف شعره لكنه يحزن لأنه كان ينبغي عليه إما أن ينجح أولا في تحرير بلاده أو أن يأتي إليها في قوافل أرواح الشهداء.

ويخبرها أن ضياع وطنه يعذبه ويؤرقه. وروى لها قصة رحلته الروحية إليها. وتسأله: "ماذا يجدي وطنك أن يقتنع بوجوده حفنة من علماء الأزهر أو ملايين من سواهم؟". وبعد نقاش معها وممانعة قبِلت أن تضعه تحت سلطتها الروحية وتسير به إلى رحاب أوسع. وفي المرحلة الثانية من الصفاء الروحي تشكَّل وفد لاستقباله مكون من رفاقه في الحركة الدستورية الذين فقدوا حياتهم عند فشلها، وهم عبدالوهاب نعمان، وزيد الموشكي ومُحَمَّد صالح

---

[75] محمد محمود الزبيري، مأساة واق الواق، ص. 35 . 36.

[76] نفسه، ص. 48 . 49.

المسمري وجمال جميل. أما في المرحلة الثالثة من الإبحار في سماء الروح فقد التقى بروح أربعة من رجال التنوير العربي الإسلامي هم جمال الدين الأفغاني ومُحَمَّد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وفُضِيل الورتلاني، زميله في الهرب من صنعاء قبل سقوط الحركة الدستورية. وبعد نقاش مع وفد الاستقبال طلبوا من السلطات العليا في الجنة أن تأذن للراوية بزيارة الجنة، فقبلت بشرط عدم الخوض في السياسة. والغريب أنه حتى السلطات العليا في الجنة لم تسمع بشعب "واق الواق". لكن الراوية يرفض هذا الشرط لأنه يعني التخلي عن رسالته.

وقد بدأ سرد قصة وطنه ومعاناته. وظهور حركة الاستنارة والمعارضة حتى قامت الحركة الدستورية في 1948 التي سقطت، وحركة 1955، وانتفاضة 1959، وانتقل إلى الحديث عن نكبة المهاجرين المشردين في أصقاع الأرض، وانشطار أرض واق الواق إلى شطرين، شطر تسومه مملكة الظلام سوء العذاب ونصف مستعمر متخلف. وبينما الراوية مستغرق في سرد تقريره هبط ملك يطلبه من جهنم فأخافه وأرعبه، ولكنه اكتشف أنه جاء يستدعيه ليشاهد الزبانية يعذبون بأهوال من العذاب المرعب الطاغية الجلاد وأنصاره ومعاونيه ومخبريه، فتنتاب الراوية الخشية من أن يركن الشعب إلى تعذيب الطغاة في الآخرة فلا يكافح من أجل تحرير نفسه من الظلم والطغيان. ويشاهد أنصار الطغاة يتحسرون لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الأحرار لتحريرهم من العبودية والخضوع للطغاة.

ورأى جماعة من علماء السوء تُعذَّب بسبب أكلهم الرشاوى، وشاهد الأئمة الظالمين يعذبون لا ينفعهم ملكهم ولا سعة ممتلكاتهم وسلطاتهم، تشهد عليهم أعضاؤهم وأشلاؤهم. ورأى أشد العذاب ينزل بالسياف الذي كان الطاغية يأمره بقطع الرؤوس فينفذ، وتحت وطأة عذاب جهنم يصرخ الجلاد قائلا إنه لم يفعل سوى تنفيذ الأوامر. ويشاهد الفأر الذي تسبب في هدم سد مارب يشكو من أن الذين تتالوا على حكم مارب واصلوا هدم السد، مع أنه كان بإمكانهم ترميمه وأحياء حضارة سبا وغيرها من الحضارات اليمنية القديمة، وبذلك يتبرأ الفأر من خراب السد ويحمِّل الحاكمين مسئولية الخراب. ويرى عماد الطغيان الذي ما إن رأى الراوية حتى صاح يطلب معاونيه في الدنيا ويأمرهم أن يقطعوا رأسه. فيُبيّن له الراوية أن الأحرار أرادوا تحريره من الظلم وتجنيبه العذاب في الآخرة لكنه لم يستمع لصوت العقل والحكمة. ثم يمضي الراوية في حوار طويل معه يشرح أسباب الثورة عليه.

ويعود العزي محمود من جهنم والزبانية ينتظرونه ويقلقون لتأخره. وكان زملاؤه ينتظرونه أيضا. وفي مشارف الجنة وجد لجنة الاستقبال في انتظاره.

وتحرك الجميع لزيارة الجنة وحذروه من رفض الخروج من الجنة بعد التمتع بنعيمها. فأجابهم ببيت من شعر أحمد شوقي يقول:

وطـني لـو شُـغِلتُ بالخلـد عنـهُ نازعتــني إليــه بالخلــد نفســي

امتطى ظهر جواد من جياد الجنة وسار ومن معه كل على جواد إلى الشهيد جغمان، ويشكو حميد بن حسين الأحمر من تخلي همدان عنه. وتأتي عجوز أم لثلاثة شهداء من بيت أبي دنيا ومعها أبناؤها الثلاثة.

ويشاهد قصر غمدان وقد أعيد بناؤه في الجنة لينزل الشهداء فيه ويقارن بين حاله في الجنة وواقعه في واق الواق حيث تحول إلى سجن رهيب للأحرار. وتحشد الملحمة سيف بن ذي يزن والخليفة الثالث عثمان بن عفان وعبدالمطلب بن هاشم، وأمية بن أبي الصلت، وأسعد تُبَّع وتجمعهم في قصر غمدان. ويستغرب سيف بن ذي يزن ما حدث لليمن من بعده. ويحس بأنه ما يزال يشعر بشيء من الارتباط والمسئولية عن الشعب. لأن سيادة فلسفة الخراب والدمار من بعده جعلت الحال ينقلب من الحضارة القديمة إلى الأسوأ. وتعيد الملحمة انتظار اليمنيين العون من الجامعة العربية لتحريرهم من الطغيان إلى العقدة اليزنية التي استعان فيها سيف بن ذي يزن بالفرس لتحرير بلاده من الاحتلال الحبشي. ويعترض سيف على المساواة بين عصره وواقع العصر الحديث، مؤكدا أن الأمر مختلف. ويؤكد أنهم في عصره قد حرروا أرضهم ولم يحصلوا من الخارج سوى على مساعدة بسيطة.

وتنعقد محكمة حب برئاسة أسماء بنت أبي بكر. وبعد سماع المرافعات والحجج تقرر المحكمة أن للسيدة أم الشهداء الثلاثة من آل أبي دنيا الحق في أن تتزوج من تشاء. لكنها اشترطت ذهاب عهد الطغيان الذي قتل أبناءها قبل أن تقرر.

ويلتقي الراوية في الجنة الإمام الهادي في خولان التي آزرته، فيحتج حميد الأحمر ويقول إن خولان السبب فيما تعانيه اليمن. لكن الإمام الهادي يقول إنه المسئول وحده عما حدث ويتبرأ من الطغاة وينكر أنهم منه ويغضب من الحديث عن سلالته. ويشرح الراوية للهادي معنى حركة الأحرار. فقال الهادي إنه يعتز بهم. وحدث الصلح بين مراد وخولان بسبب الخلاف حول قتل القردعي في بلاد خولان. ووعدت خولان بتصحيح موقفها عن

طريق العمل لوضع نهاية للظلم والفساد والطغيان. واشتكى حميد مما فعله أشراف الجوف به لأنه وضع حياته في أيديهم وتعهدوا له بالحماية لكنهم سلموه للطاغية. ودافع الهادي عن القبائل قائلا إنهم ينبوع العروبة. وتنازل حميد عن حقه مقابل أن يقف الأشراف مع القبائل الأخرى في التصدي للطغيان.

ويتحول اللقاء إلى مؤتمر لمحاكمة الطغيان ووضع الحلول للمشاكل التي تواجه بلادهم. لكنهم قبل المؤتمر يطوفون بالمقابر المزخرفة للشهداء وقبر صنعاء التي يحكمها الطغاة، ويخاطبون العلماء الخاضعين للطغيان دون أن ينكروا عليه ما يفعل، ويخاطبون الأسر المنكوبة ببطش الطاغية، ويطلبون تضامن الجميع.

وانعقد المؤتمر الذي حضره عدد كبير من الشهداء، وتحول إلى محكمة لمحاكمة الطاغية تولى رئاستها علي بن أبي طالب وكان المدعي فيها زيد بن علي.

عرَضَ المدعي جرائم الطاغية وما فعله بشعب "واق الواق". ولأن الزبيري كتب هذه الملحمة بعد قتل الإمام للشيخ حسين بن ناصر الأحمر وابنه حميد، حين كان دمهما المسفوك ما يزال حارا، أعطى لهما مكانة كبيرة في سرد الحكاية وفي مداولات المؤتمر والمحاكمة. وعلى لسانهما عرض أن يكون اليمنيون أخوة لا يفرق بينهم مفرِّق، في وطن مشترك يظلهم جميعا يكون الحكم فيه للشعب، وأن يتكوَّن مجلس خاص تتمثل فيه القبائل لتشارك في الحكم، وأن يتقدموا بمطالب موحدة، يتفق عليها "أهل الحل والعقد".

وأكدت المحاكمة على أنه لا توجد فئة في واق الواق قادرة لوحدها على حل مشاكلها. ونطق علي بن أبي طالب بالحكم وهو "بعث الشعب، وتجميع قواه، وتوحيد كلمته، والشعب وحده هو الذي يستطيع أن يجد الجزاء العادل"[77]. وهكذا حتى في الحلم وفي عالم الروح جعل الحل الوحيد بيد الشعب، فهو القادر إذا أراد على تغيير حاضره البائس وتحرير نفسه وبناء مستقبله.

إنها ملحمة استفاد الزبيري فيها من تقنية الرواية ومن قصة الإسراء والمعراج ومن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومن أم القرى للكواكبي، وجعل الراوية يحكي قصة رحلة روحية ساحرة إلى عالم الغيب وما بعد الموت ليقابل شخصيات أغلبها حقيقية من المناضلين

[77] نفسه، ص. 200.

ضد الطغيان والمطالبين بالإصلاح الذين قدموا حياتهم في سبيل ما آمنوا به. استخدم تقنية الوصف والرواية والسرد، وفي بعض الحالات الحوار والتقارير عن وقائع تخيلها ونقلها ووصفها. وأضاف إلى الشخصيات الواقعية التي يعرفها شخصيات أخرى لم يقابلها في حياته، بعضها رموز تاريخية بارزة مثل سيف بن ذي يزن، وعلي بن أبي طالب والحسين بن علي، وتخيل شخصيات ابتدعها وتصور ملامحها وأفكارها وأبدع في تصويرها. وهكذا استحضر من أراد من الشخصيات التاريخية ووظفها في صياغة أسطورته، وجعلهم كلهم يضيفون إلى البناء الملحمي للقصة ويشاركون في الحكاية وتناميها حتى النهاية التي أرادها وإصدار حكم التاريخ في القضية التي عرضها في ملحمته باسم أعلى المرجعيات الدينية والتاريخية. ولم يكن هذا الحكم أن يُترك العقاب أو الجزاء إلى الآخرة، لأنه يرى أن انتظار العقاب في الآخرة خَوَر وضعف واستسلام وتركٌ للطغاة كي يتمادوا في غيهم ويتجاهلوا أحوال الشعب ما دام أحد لا يعترض عليهم ولا ينصحهم ولا يردهم. واختار بدلا من ذلك أن يكون العقاب في أيدي الشعب، فهو وحده القادر على وضع نهاية للطغيان وبناء حاضر اليمن ومستقبلها كما يريد وبما يخدم مصالحه ويحفظ له كرامته.